المحاضرة 07: مدخل إلى النثر العربي الحديث

لا يختلف النثر كثيرا عن الشعر الذي عرف تراجعا وضعفا قُبيل العصر الحديث، ولعلّ ما وصل إلينا يعطينا فكرة حول الأشكال النثرية التي تدور في أغلبها في المقامات والرسائل التي اصطبغت بالصّنعة اللفظية، والألفاظ الدخيلة من عاميّة وتركية "فكثيرا ما كان هذا اللون من الكتابة لا يكتفي باتّخاذه ميدانا لتسابق الأدباء التقليديين، ومجالا لإبراز البراعة في الحيل اللفظية والمحسنات البديعية، بل يتجاوز ذلك إلى إظهار القدرة على حوك الألغاز، وفهم الأحاجي" حسب د.أحمد هيكل.

ويقول حنا الفاخوري في هذا الصدد: "خرج النثر من عهد الانحطاط واهي القوى، مفكك العرى، يدور في حلقة ضيقة من اللاشيء المعنوي والفني، ويزدهي بأنه رافل في أردية فضفاضة من الزخرفة والألاعيب اللفظية التي لجأ إليها الكاتب يسترون بها الضعف والجمود، وقد تكاثر الزجل، وعمّ اللحن"، وهذا يعني انّ الضعف لم يقتصر على الجانب الشكلي فقط بل تعداه إلى المضمون، واستمرّ على هذا الحال إلى غاية بداية النهضة العربية التي أمدّته ببداية جديدة لأنّ "أغلب رواد الإحياء والبعث قد اعتنوا بالنثر على حساب الشعر، ولأنّ المثاقفة بين العرب وغيرهم قد أفرزت تأثرا واضحا في كل المجالات ومنها النثر" بحيث برزت إلى الساحة الأدبية أنواع أدبيّة لم يعهدها العرب كالمقالة والرواية والمسرحية.

مراحل تطور النثر العربي الحديث:

مرّ النثر العربي الحديث بمراحل عدّة كل مرحلة تميّزت بسماتها التي تدل على تطوره وازدهاره، فما هي هذه المراحل؟

1- مرحلة البدايات:

تميّزت هذه المرحلة بجملة من الخصائص، حاول النثر فيها التماس طريق له بعد ما أصابه من انتكاسات وضعف قبل عصر النهضة سواء على مستوى الشكل أو المضمون، يمكن تلخيصها فيما يأتي:

- حاول أن يكون مرآة عاكسة لحياة العرب الجديدة.
- السعي إلى التخلّص من الأغراض القديمة.
- التجديد على مستوى الأسلوب، من خلال الابتعاد عن الزخرف اللفظي والقوالب الثابتة.

والفضل في هذا السعي يعود إلى رواد هذه الفترة، الذين استفادوا من الثقافات الغربية عن طريق البعثات العلمية أو الاستعمار، ومن أبرزها نذكر: رفاعة الطهطاوي صاحب كتاب (تلخيص الإبريز

في تلخيص باريز" / "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" لعبد الرحمان بن حسن الجبرتي. بالإضافة إلى ناصيف اليازجي الذي يعود له الفضل "في إحياء اللّغة العربية عن طريق تدريسها وكتابة المقامات".

نذكر أيضا في هذا المقام جمال الدين الأفغاني الذي لعب دورا كبيرا في تنوير هذه الفترة، يرجع ذلك إلى رحلاته الكثيرة، وكذا اتقانه للغات، مما جعل منه أحد أبرز أعلام المشرق العربي، رسم معالم النهضة الفكرية، بفضل مقالاته التي نشرها في جريدة "العروة الوثقى" التي أسّسها مع تلميذه محمد عبده.

2- مرحلة التحول: ومن تسميتها نفهم بأنّ النثر قد سار على خطوات تغييريّة، بفضل بروز شخصيتين هما: محمد عبده، الذي سار على منهاج أستاذه جمال الدين الأفغاني في الدعوة إلى الإصلاح التربوي والفكري، والسعي إلى المحافظة على اللغة العربية من الضياع، وتنقيت أساليبها من المفردات الدخيلة والضعيفة التي قد تجعل منها متكلفة، لهذا عُدّ بمعنى الكلمة "رائد الأسلوب النثري الحديث بما دعا إليه من الثورة على السجع وعلى المحسنات، ومن الحرص على مساوقة الطبع والتعبير عن المعنى". وقد كان لمقالاته (الكتابة والقلم/ العلوم الكلامية والدعوة إلى لعلوم العصرية/ المعارف...) التي نشرها في جريدتي "العروة الوثقى والوقائع المصرية" أثرا واضحا في نشر الثقافة العربية. وبوره عبد الرحمان الكواكبي صاحب كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" و "أم القرى"، وكذا مقالاته الت نشرها في جريدتي "الشهباء" و "الاعتدال" كان له الأثر البارز في تطوير النثر العربي الحديث. وبالتالي يمكن اعتبار هذه المرحلة هي التي أرست أسس الكتابة النثرية.

3- مرحلة النضج والازدهار: تنوّع الفن النثري في هذه المرحلة وتعدّدت أغراضه وكتّابه الذين انقسموا إلى قسمين:

أ- مذهب المحافظين: الذين جاء أدبهم على طريقة وأساليب القدامى، ومن أعلامه: مصطفى صادق الرافعي، وأحمد حسن الزّيات والمنفلوطي...

ب- مذهب المجددين: الذين تأثروا بالثقافة الغربية التي أفادوا منها، فجاء نثرهم رجع صدى لها، فظهر ذلك في كتاباتهم وأساليبهم وعمق أفكارهم، ومن أعلامه: عباس محمود العقاد وطه حسين والمازني وتوفيق الحكيم...بالإضافة إلى ما جاءت به دعوة الإصلاح الاجتماعي التي نادى بها أمين قاسم في مقالاته التي نشرت في جريدة "المؤيد"، وجمعت على شكل مقالات في كتاب "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة".

مراجع المحاضرة:

*عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه.

*عمر الدسوقي، نشأة النثر الحديث وتطوره.

*محمد أحمد ربيع، وسالم أحمد الحمداني، دراسات في الأدب العربي الحديث (النثر).